لغة النقش على المصنوعات النحاسية

دراسة لغوية وصفية

محمد خالدي

1/مقدمة:

ماذا نريد بلغة النقش على المصنوعات النحاسية؟
ولماذا كان اختيارنا للمصنوعات النحاسية خاصة ؟
ولماذا كانت مدينة تلمسان هي العينة لهذا الموضوع؟

هذه الأسئلة يمكن أن نجيب عنها بعد هذا ا لعرض البسيط لدلالات بعض الألفاظ المتعلقة بمادة البحث، ومنها: النقش، والمصنوعات النحاسية، واختيار مدينة تلمسان.

إن النقش في اللغة هو النمنمة، حيث يقول ابن منظور في فيه : نَقَشَه يَنْقُشُه نَقْشاً وانْتَقَشَه: نَمْنَمَه، فهو مَنْقُوشٌ، ونَقَّشَه تَنْقِيشاً، والنَقّاشُ صانِعُه، وحِرْفتُه النِّقَاشةُ، والمِنقاشُ الآلةُ التي يُنْقَش بها؛ آنشد ثعلب:

فواجَزَنَا إنّ الفِراقَ يَرُوعُني
بمثل **مَناقِيشِ** الحُلِيّ قِصَارِ

قال: يعني الغِرْبان . والنَّقْشُ: النتْفُ بالمِ نْقاشِ، وهو كالنَتْشِ سواء. والمَنْقُوشةُ: الشجّةُ التي تُنْقَشُ منها العظامُ أي تُستخرج أَخرجها . وبه سمي المِنْقاشُ الذي يُنْقَشُ به. (1)

فالنقش هو حرفة النمنمة، والحرفي منه هو النقَّشُ، والمنقش : هي الآلة التي ينقش بها.

وأما النُّحَاسُ: فهو "ضَرْبٌ من الصُّفْر والآنية شديدُ الحمرة . والنُّحاس، بضم النون: الدُّخانُ الذي لا لهب فيه . وفي التنزيل: ﴿يُرْسَل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونُحَاس﴾ . قال الفراء: وقرئ ونِحاسٍ، قال: النُّحاسُ الدُّخان؛ قال الجعدي: يُضِيءُ كَضَوْء سِراجٍ السَّلِيطِ لَمْ يَجْعَل اللَّهُ فيه نُحاسا . وقال أَبو حنيفة : النُّحاس الدُّخان الذي يعلو وتَضْعُف حرارته ويخلص من اللهب . ابن بُزُرج : يقولون النُّحاس، بالضم، الصُّفْر نفسه، والنِّحاس، مكسور، دخانه . وغيره يقول للدُّخان نُحاسٌ. ويقال: والنِّحَاسُ والنُّحَاسُ: الطَّبيعة والأَصل. (2)

ومهما تعددت معاني لفظ النحاس فإن دلالته هنا هي ضرب من الأواني الحديدية، ذات اللون الأصفر المائل إلى الحمرة . وهذه الأواني تستخدم غالبا لتقديم المشروبات أو المأكولات، وقد تستخدم للزينة والتجميل، وخصوصا إن كانت هذه الأواني ذات جودة رفيعة.

وأما اختيارنا لمدينة تل مسان فلغناها بالمعالم الأثرية والتحف التاريخية العتيقة، ولا سيما المعالم والتحف الإسلامية التي يعود تاريخها إلى زمن الفتح الإسلامي . وبخاصة التحف النحاسية التي وصلت تلمسان أيام المماليك.

إن تلمسان(1)، باعتبارها مدينة تقع في الحيز الجغرافي للمغرب العربي فإنه ا قد تأثرت بما تأثرت به هذه المنطقة من العالم الإسلامي فكان لها ما توارثته الأجيال هناك من صناعات محلية، وما اكتسبته عن طريق التجارة ، وتبادل السلع، وكان الاحتكاك عن طريق الحروب، والغزو الذي عرفته تلمسان على أيدي أقطار أجنبية . إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية، واندمجت المدينة تحت راية الدولة الإسلامية العظمى وعبرها مرت جحافل الجنود الفاتحين للأندلس، حيث ساهم أهل المدينة في هذا الفتح المبين بكل ما يملكونه من غالي ونفيس.

2/ **تأثير الحضارة الأندلسية على تلمسان:**

وبعد فتح الأندلس، وازدهار الحضارة الإسلامية بها، ووصولها إلى أوج قمتها ، وتطور جميع الحرف والصناعات التقليدية وفي كل المجالات كالهندسة الم عمارية والعلوم المختلفة الأخرى، والفنون الأدبية المعروفة التي طبعت الأندلس . فق د ازدهرت الصناعات المعدنية وخاصة النحاسية منها التي هي موضوع دراستنا.

وبفعل الإشعاع الثقافي والصناعي والعلمي التي شكلته الأندلس في ذلك الوقت، فقد أصبحت مصدر استلهام وتأثير لدى مع ظم الشعوب خاصة القريبة جدا منها . فكان ت أثر حضارة منطقة المغرب العربي جليا وظاهرا باعتبارها همزة وصل بين دول المشرق الإسلا مي والدولة الإسلامية بالأندلس.

وتمثل مدينة تلمسان، نموذجا حيا لذلك التأثر، وحسب ما نقله إلينا المؤرخون، فـإن تلمسان عرفت في الق رن العاشر مي لادي، بن اء المساج د الشهيرة، وكذلك الأسواق العامة فازدهرت التجارة، وهذا ما أدى إلى نمو وتطور عدة حرف ، وصناعات و منها صناعة النحاس. حيث نرى من خلالها ح سب الباحثين والدارسين المختصين ، تأثرا كبيرا بالأس لوب الأندلسي في صناعة الأواني والتحف النحاسية، وطريقة زخرفتها.

ازدهرت الحرف والصناعات اليدوية بمنطقة تلمسان وخاصة بالحي الشعبي بأقادير(2)، الذي كان حيا شعبيا مكتظا بالسكان، حيث انتشرت به عدة حرف وخاصة الصناعات النحاسية في عهد يغمرا سن بن زيان (3) الذي لم يبخل على تلمسان أي جهد في سبيل نهضتها وازدهارها.

فبالإضافة إلى أنه أمر بتشييد مئذنتين فخمتين ، واحدة بمسجد أقادير (4)، وأخرى مماثلة للجامع الأعظم (5)، وهما دليلان قاطعان على تقوى السلطان يغمراسن(6)، فإنه كان يشجع كل الحرفيين بما فيهم صناع النحاس، باعتبار أن النحاس كان مادة مطلوبة كثيرا في بلاط السلاطين، نظرا لتعدد منافعه. كما أن هذا السلطان (يغمرا سن)، قد منح المدينة تحفة أخرى عجيبة لها من الج مال ما يميزها عن غيرها من التحف، ألا و هي ثريا الجامع الكبير ،

والتي حفظت بقاياها في متحف المدينة (تلمسان). إن الثريا الضخمة تشكلت من أربع حلقات من خشب الأرز، متفاوتة في الكبر غشيت بالنحاس وركبت متدرجة حاملة مصابيح.

3/ **الصناعة النحاسية في تلمسان:**

تعتبر الصناعات النحاسية في تلمسان، علامة مميزة و مبينة للعبقرية الفنية للمنطقة، مصبوغة ومطبوعة بالفنون العريقة الأندلسية والمشرقية. فهي إذا خلاصة لتفاعل مدرستين مختلفتين إلا أن التأثر بالطابع الأندلسي يظهر جليا على فن صناعة النحاس، وهذا حتى ظهور أسلوب مميز، وخاص، على يد الأستاذ محمد بن قلفاط (7)، الذي نجر النحاس بواسطة إزميل حاد، معروف لدى الحرفيين التلمسانيين حيث يعود الفضل في تداوله للأستاذ والحرفي النحاسي المذكور سابقا . فأعطى تلمسان طابعا خاصا بها ، وأسس لظهور لون وأسلوب مستقل، مميز عن غيره من أساليب الضرب على النحاس ، فتكونت بذلك مدرسة تلمسانية في فن صناعة الأواني والتحف النحاسية.

وبذلك تطورت الصناعات النحاسية في تلمسان ، في وسط كان غني بالنشاطات الحرفية، بحيث أن كل المنتجات النحاسية (أواني وتحف، وجدت اتجاهها ورونقها بفضل الفن الزخرفي، الذي ازدهر وانتشر في ذلك الوقت . ولا زالت تمارس إلى يومنا هذا وب فضل تلك الزخرفة المتناهية الدقة، يأخذ المنتوج النحاسي، شكل تحفة فنية رائعة وساحرة.

4/ **أهم المنتجات التي اختص بها صناع النحاس في تلمسان:**

إن الأواني النحاسية المصنوعة ، والتي اختصت بها تلمسان تمثلت في صنع المصابيح المركزة، "شمعدان"، وهي عبارة عن قطع من نحاس مربعة، ويعلوها هرم مزخرفة بزجاجية، ومطرقة، أي مهيأة وفق نمط معين، حتى يمكن تركيبها أو وضعها على الشمعدان.

كما أن الأواني النحاسية التلمسانية، لها طابع فني متميز ، يغلب عليه طابع النقش الدقيق والمنحوت والمحفور. ويسمى كذلك فن الأرابيسك.

كما أن حرفي النحاس في تلمسان، أنتجوا ساندات الكتب، التي تستعمل كقطع أو تحف زخرفية في المنازل. حيث أنها طبعت الأيام الذهبية لتلمسان وعجت هذه المدينة ، ووصلت أوج عزها ورقيها أيام أن جعلها الزيانيون عاصمة، وتوافد عليها العلماء، وطالبي العلم ، حيث كانت "ساندات الكتب" حاضرة في أماكن طلب العلم ومنازل العلماء. أما شكل هذه الساندات للكتب، فكان جانبها العلوي يفيد لاحتواء الكتاب بدون أن يكون القارئ مجبر على مسكه.

اشتهر صناع النحاس بتلمسان، وبرعوا في إنجاز المقارع، أو "الطبطبات" كما يسميها أهل تلمسان، وهي عبارة عن قطع نحاسية تعلق وتثبت، بوسط باب المدخل الرئيسي للمنزل، أو البناية ، ويستعمل للدق على الأبواب.

يشبه شكل هذه المقارع ، أو الطبطبات ، شكلا من الأشكال المطروزة على اللباس التلمساني التقليدي، التي ترتديه العرائس في حفل الزفاف.

ويمكننا القول، أن تلمسان كانت دائما مركزا حرفيا، تقليديا، نشطا وفعالا، بفعل يد عاملة ماهرة ومتخصصة.

5/ مراحل صناعة آنية نحاسية بالطريقة التلمسانية:

- قص الصفيحة النحاسية على حسب الحجم، أو الشكل المراد بالمقص الحديدي.
- تثبيت الصفيحة النحاسية على طاولة خشبية تثبيتا جيدا.
- رسم، ثم نحت الأشكال المرسومة عن طريق النجر بواسطة إزميل حا د، إلى غاية الانتهاء من العملية.
- تفريغ القطع الزائدة فوق الشكل المرسوم.
- الترميل بواسطة "السابلوار"، وهو إزميل قاعدته مصفحة و محببة ، تضرب أو تطر ق على المناطق المنجورة لتزيينها، وإعطائها منظرا لائقا.
- التنظيف بواسطة مواد خاصة، كالأحماض، والماء، باستخدام فرشاة سلكية.
- التلميع بواسطة فرشاة قماشية مثبتة في محرك كهرب ائي، وباستعمال صابونة ، أو فارينة دقيقة، أو قطع الليمون.

6/ خصائص الطريقة التلمسانية:

إن الصناعة النحاسية في تلمسان، أخذت طابعا ولونا خاصا، حيث أن المختص أو الحرفي بمجرد أن تقع عيناه على منتوج نحاسي تلم ساني، يمكن أن يميزه، ويفرق بينه وبين المنتوجات الأخرى، وينسبه إلى المدرسة التلمسانية، نظرا للخصائص التي ذكرناها و سوف نذكرها.

تعتمد الزخرفة على النحاس عند الحرفيين في تلمسان، على الضرب على إزميل واحد، (burin) قاعدته حادة، ويعتمد الحرفي على النجر، وهنا تظهر براعة النحات بإضفاء روح فنية على المنتوج النحاسي، إذ يعتمد هنا النحاس على مرونة يديه ، فواحدة تطرق بالمطرقة، والأخرى تمسك بالإزميل، بطريقة مائلة، وتتحرك بطريقة آلية و ببقة متناهية ع الية ورائعة.

وينتج عن هذه العملية إنجاز رسم على الصفيحة النح اسية ، بصورة فنية حيث تبدو للمتأمل فيها، أن يد النحات، أعطتها روحا وانتعاشا، تكاد تلك الزخرفة أن تنطق معبرة عن نفسها أو تعكس ما يلج بداخل النحات التلمساني.

أما الطرق الأخرى، فتعتمد في زخرفة الصفيحة النحاسية، على عدة طوابع وكل طابع، قاعدته عليها شكل من الأشكال الزخرفية المراد طرقها أو ضربها على الصفيحة النحاسية.

إن صانع الأواني والتحف التلمساني، لا ينتج كثيرا، مقارنة بحرفي المناطق الأخرى الذي ينتج فيها الحرفي أضعاف نظيره بتلمسان، وهذا نظرا لاختلاف الزخرفة بينه ما إذ أن طرق الزخرفة الأخرى تعتمد على طريقة آلية (الاعتماد على طوابع أي أزاميل بقواعدها رسومات منحوتة وناتئة وتضرب من أعلى فتعطيك رسومات معدة من قبل).

أما عند التلمسانيين، فطريقتهم تختلف ، حيث يعتمدون على خيالهم ، و تجربتهم الفنية في الحرفة. فلمخيلتهم دور كبير في الرسم على الصفيحة النحاسية، والنجر، فيتحصل على شكل معبر فيه كثير من القراءات، وما الآثار النحاسية المتبقية والمحفوظة في متحف تلمسان، وكذلك في بعض بيوت أعيان هذه المدينة، لخير دليل على ما نقوله . حيث أنه من

كثرة دقة صنعها ، وتفنن أصحابها في إنجازها ، و زخرفتها فإنها تعتبر تحف فنية رائعة ومتميزة.

7/ نماذج تفوق الصناعة النحاسية في تلمسان:

و من الآثار التي تبقى شاهدة على تفوق الصناعات النحاسية في تلمسان، وبراعة يد صناعها في إنجازها، وتنفيذ زخرفتها، ولا تزال قائمة إلى اليوم . نذكر با ب مسجد "سيدي بومدين الغوت"، وثريا الجامع الكبير بتلمسان.

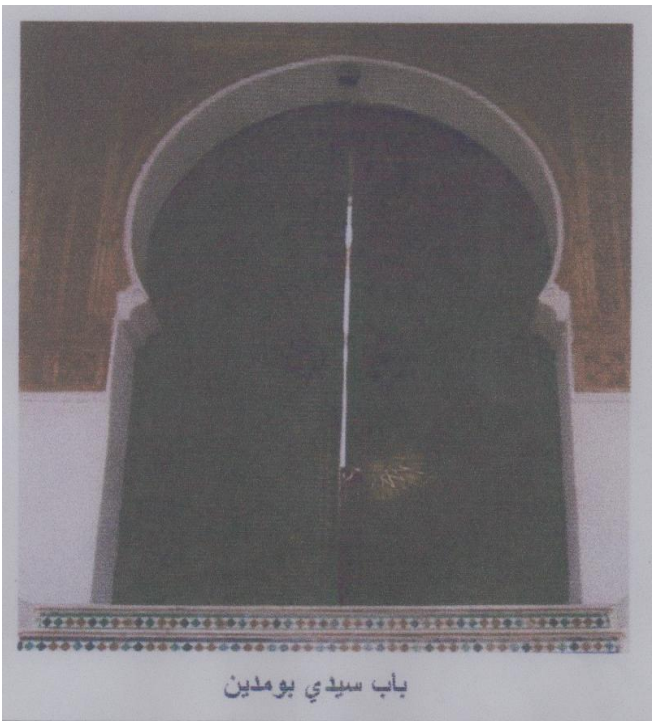
باب سيدي بومدين

أ/ باب مسجد "سيدي بومدين الغوث " بتلمسان(8)**:**

يعتبر باب مسجد "سيدي بومدين" من التحف الفنية التاريخية الرائعة، وهي مصنوعة من الخشب السميك (15سم)، ثقيلة الوزن تتكون من دفتين أو مصراعين ، ارتفاعها حوالي (4.54م) أربعة أمتار وأربعة وخمسون سنتمترا ، وعرضها حوالي (3.26م) ثلاثة أمتار وستة وعشرون سنتمترا (أنظر الشكل المرافق).

يجهل لحد الآن، تاريخ إنجازها، إلا أن المتفق عليه هي أنها قديمة جدا، مرت عليها عدة قرون، ولا تزال في ح الة جيدة،رغم قدمها، وتأثر بعض أجزائها بفعل تأثيرات العوامل الطبيعية وخوفا عليها من التآكل، أوكلت مهام تجديدها وتلبيسها بالنحاس ا لأصفر ، للحرفي النحاسي

محمد بن قلفاط، فأخذ على عاتقه، مهمة تلبيس هذه الباب بالنحاس الأصفر، وزخرفتها سنة 1894-1895 فأعطاها وجها جديدا، فنيا وتقليديا لائقا، ومنذ ذلك الوقت أخذت هذه الباب شهرة فنية، وعرفت كشاهد من شواهد تفوق فن الصناعات النحاسية بتلمسان.

و من الحكايات التي وصلتنا حول أصل هذه الباب، أنها صنعت في الأندلس ووصلت إلى تلمسان عن طريق البحر. حيث رمت بها الأمواج بسواحل تلمسان، وهذا بعد سقوط الأندلس على يد الإسبان، فوضعت بالمدخل الرئيسي لمسجد "سيدي بومدين الغوث" بتلمسان.

إن الباب النحاسية لمسجد سيدي بومدين تعتبر تقليدا أو اقتباسا لتلك الصناعة النحاسية التي ازدهرت في الأندلس، على يد النحاسيين العرب ، وأكبر شاهد على ذلك تلك الأبواب البرونزية التي لا تزال قائمة ، ومنها باب في كاتدراثية قرطبة، يعود تاريخها إلى نحو سنة 1415 وباب آخر في كاتدراثية أشبيلية من طراز مشابه للباب السابق (9).

تظهر على باب مسجد "سيدي بومدين " زخارف بها أشكال هندسية ، بعض أضلاعها تتفاوت في الطول، وتتراوح ما بين 12 سنتم و14 سنتم و 32 سنتم وهذه الأشكال الهندسية سداسية الشكل وتتداخل فيما بينها آخذة أشكالا مختلفة مظهرة أشكالا على صورة نجوم.

ب/ المقرعة أو الطبطابة: توجد على هذه الباب مقرعتان أو طبطبتان كما يسميها أهل تلمسان (أنظر الشكل المرفق).

مقرعة (طبطابة)

كل واحدة على مصراع دائرية الشكل تقريبا قطرها 25 سنتم مزخرفة تشبه إلى حد بعيد تلك الزخرفة المطروزة على ألبسة النساء التقليدية "القفطان" كما تسمى في تلمسان ويصف ابن مرزوق(10) هذا الباب في مسنده و هذا قبل أن يعاد تلبيسها على يد الحرفي النحاسي محمد بن قلفاط حيث يقول:

"وأما الباب الجوفي الذي يتفتح على المدرج الذي ينزل ف يه إلى قبر الشيخ وإلى الشارع وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منها بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة للعمل و تخريمه على أشكال من نحاس ملونة فهو غريب ما يتحدث به السفار أخذ عن صناعة المصراعين نحو سبعمائة دينارا ذهبا عينيا، هكذا و جدته بخطى على ثمن النح اس والحديد والخشب والأصبغة..." (11).

ج/ **ثريا الجامع الكبير:**

تعتبر الثريا العجيبة الموجودة بمسجد الجامع الكبير بتلمسان والتي تتوسط المسجد مقابلة للمحراب والتي صنعها الحرفي محمد بن قلفاط أيام حياته سنة 1903 (أنظر الشكل المرفق).

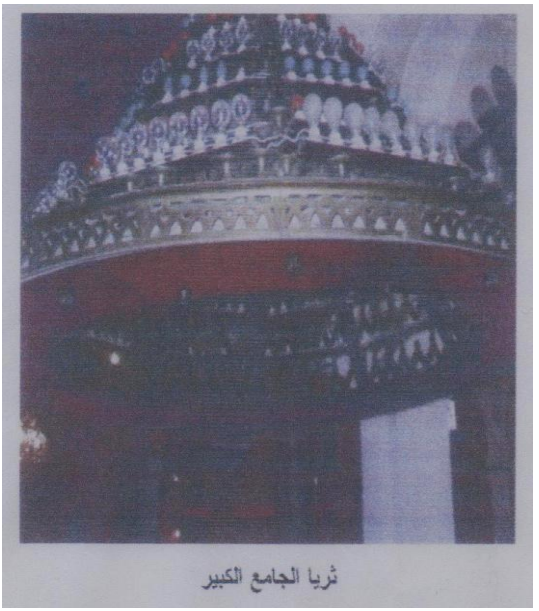

ثريا الجامع الكبير

تتكون من عدة عناصر على شكل دوائر أو حلقات خشبية موضوعة ومثبتة الواحدة تلو الأخرى على شكل لولبي.

وتعتبر هذه الثريا عملا تقليديا برع في إنجازها الحرفي محمد بن قلفاط، حيث أنجزها على شكل ونحو قلد فيه إلى ابعد حد الثريا القديمة التي كانت موجودة بنفس المسجد ، حيث أنك لا تستطيع أن تفرق بينها وبين الثريا الأصلية التي توجد بقاياها بمتحف مدينة تلمسان.

تتكون هذه الثريا الفخمة، من قطع خشبية من شجر الأرز، تشكل فيما بينها دائرة أو حلقة، قطر كل قطعة (1.53 م) مترا وثلاثة وخمسون سنتم، وسبائك حديدية تعلو القاعدة الخشبية ويبلغ طول كل سبيكة (1.87م) مترا وسبعة وثمانون سنتم، وهي على شكل مخروطي، وكانت كل أجزاؤها ملبسة بالنحاس، ومزخرفة بشكل فني متناهي الدقة والجمال أبدعت فيه يد صانعها.

وخلاصة لما سبق، يمكننا القول: إن الصناعات النحاسية في تلمسان، أخذت مكانا ه اما وسط النشاطات الحرفية التي كانت تزخر بها ال مدينة عبر التاريخ . ساعدتها في ذلك عدة عوامل منها الحركة التجارية التي ع رفتها المنطقة. حيث سميت في فترة ما بطريق التجارة، باعتبارها كانت تتوسط ميناء هنين التجاري، وكذلك الصحراء. فكانت عبارة عن همزة وصل بين التجار كما أنها ونظرا لموقعها الجغرافي، الذي كان يتوسط الأندلس ، والمشرق العربي . فإن القوافل كانت تمر عبرها في الاتجاهين. ونظرا لتفوق الأندلسيين في هذه الصناعة، وقرب تلمسان من الأندلس فإن عملية التأثير والتأثر بدت واضحة بين الحرفيين .

ونظرا لاحتضان التلمسانيين لكثير من العائلات الأندلسية، التي هاجرت من الأندلس ، بعد سقوط الدولة الإسلامية هناك، فإن ذلك ، انعكس بالإيجاب على ج ميع مناحي الحياة والنشاطات. فكان للأندلسيين المهرة في صنا عة النحاس ، دورا هاما في صقل الموا هب التلمسانية في مجال الصناعات النحاسية. فاهتموا بها وطوعوا النحاس بطريقتهم الخاصة، إلى أن أصبحت لهم طريقة خاصة في صناعة النحاس.

الإحالات

1-لسان العرب، ابن منظور، مادةك نقش.

1-المصر نفسه، مادةك نحس.

1-تلمسان مدينة تقع في أقصى غرب الجزائر مع الحدود المغربية، يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وغربا المملكة المغربية وجنوبا ولاية النعامة ولايتي سيدي بلعباس وعين تموشنت .

2-أقادير حي من أحياء مدينة تلمسان، يقع في الجزء الشمالي الشرقي منها، عرف أوج ازدهاره، عندما كانت تلمسان عاصمة الزيانيين. خاصة أيام السلطان يغمرا سن بن زيان.

3-يغمرا سن بن زيان أحد سلاطين الدولة الزيانية.

4-مسجد أقادير يقع بحي أقادير يعتبر من المساجد القديمة التي بنيت في تلمسان.

5-المسجد الأعظم أو الجامع الكبير الذي يقع وسط تلمسان وهو مسجد قديم من أقدم الم ساجد التي شيدت في تلمسان والجزائر ككل، يقع على مساحة شاسعة .

6-تلمسان سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأنباء والثقافة، توزيع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مطبعة كتاميرا دوتوبريس. ش. مدريد إسبانيا، ديسمبر 1971.

7-محمد بن قلفاط من عائلة تلمسانية مشهورة بحبها للفن وصناعة النحاس خاصة وهو من الحرفيين المهرة في الصناعات النحاسية بتلمسان.

8-مسجد "سيدي بومدين" هو مسجد تاريخي يقع بحي العباد الشعبي الذي يقع بالجهة الشرقية لمدينة تلمسان بسفح جبل بروانة، سمي بمسجد "سيدي بومدين" نسبة إلى الوالي الصالح بومدين شعيب الخوث الذي دفن به .

9-ابتكارات العرب في الفنون وأثرها في الفن الأوروبي في القرون الوسطى لمحمد حسين جوادي، المسيرة والنشر والتوزيع، عمان ساحة جامع الحسين، سوق البراد.

10- محمد بن مرزوق عالم من علماء مدينة تلمسان لقب بالخطيب لأنه خطب على 48 منبرا بالمغرب والمشرق العربي ولد سنة 1310 م بتلمسان وتوفي سنة 1379 م بالقاهرة.

11 -تلمسان عبر العصور، محمد بن عمرو الطمار المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر سنة 1954 ص 132 -133.

المراجع

1-لسان العرب، ابن منظور،.

01- ابتكارات العرب في الفنون وآثارها على الفن الأوروبي في القرون الوسطى لمحمد حسين الجودي، المسيرة والنشر والتوزيع، عمان ساحة جامع الحسين، سوق البراد .

02-تلمسان عبر العصور، محمد بن عمر الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر سنة 1954 ص 132-133

03-تلمسان سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأنباء والثقافة، توزيع الشركة الوطنية للن شر والتوزيع، مطبعة كاتاميرا دوتوبريس، ش، مدريد إسبانيا ديسمبر 1971 .